العقـــد النفسية

فى طريق التكوين وفى طريق الزوال

للأستاذ حسين الظريفى المحامى

يراد بالعقدة كل مرض يصيب الحياة العقلية . وتفصيل ذلك أن الطفل يولد وعقله الواعى ستارة بيضاء ، حتى إذا اتصل بوالدته وذويه وبالوسط الذى هو فيه ، بدأ عقله الشاعر يتكون ويتطور ، ودوّنت على تلك الستارة معانى ما يأخذه مما حوله .

ويمكن إجمال أدوار الطفولة فى أن الطفل يشعر بادئ ذى بدء بأنه جزء من أمه ، حتى إذا بلغ الثلاث من العمر ، أخذ يشعر باستقلال نفسه ، وذكت فيه عاطفة فرض ما يريد على الغير ولفت نظرهم إليه .

ويلى هذا الدور ، دور السؤال عما حوله كمن يريد أن يحلل ويعلل ، ولا يندر أن يسأل الطفل عن نفسه : كيف وُجد ؟ ومن أين أتى ؟ وهو فى كل أدواره هذه يعمل على تكوين وتنمية عقله الواعى ، مفرغاً إياه فى الوضع الذى تهيئه له معانى وسطه المحدود .

فحياة عقلنا الظاهر يبدأ تاريخها منذ الولادة ، غير أن هذه الحياة قد تكون سلسلة متعاقبة الحلقات ، وقد تقوم بين هذه الحلقات بعض الحواجز فتفقد السلسلة صفة التسلسل ، وما هذه الحواجز إلا العقد التى تستور العقل الشاعر فى طور نموه ، فتقف حائلاً دونه ، وترغمه على تبديل اتجاهه الطبيعى بآخر معوج يدركه فيه بعض الشلل .

قد تكون هذه « العقد » فى صورة إدراك حقيقية مغلوطة تُفقد جزءاً من العقل بعض ارتباطه ، وقد تكون ملبعثة من سوء تربية الطفل وعما وراء هذا من مختلف العوامل ، فينشأ الوليد شاذاً غير سوىّ

إن الدافع الجنسى فى الطفل يتكون بعد الولادة بقليل ، ومن مظاهره : مص الأصابع ، والرغبة فى القبض على الثدى بالشفاه ، حتى فى غير أوقات الرضاع . هذا ما يقوله الدكتور فرويد ويضيف إليه أن الطفل يوزع حبه على أفراد عائلته ، غير أنه يهب أكثره لأمه لشدة اتصاله بها ، فإذا ألهاها عنه الزوج نشأ عنده الكره لأمه والغيرة من أبيه ، ويزداد هذا الانفعال رسوخاً بتكرر الوقائع ، حتى يصبح فيه الطفل واقعاً بين عامل الحب لأحد أبويه ، وعامل البغض والغيرة ، فإذا بلغ الحلم وجه حبه إلى من يختار من الجنس الآخر ، وبذلك يجد الحب له منفذاً طبيعياً يفنى فيه . أما إذا لم يوجه التوجيه الصحيح لجهل الأبوين أو لشذوذ فى الطفل ، فقد يبقى الفتى محباً لأمه ، أو لمن يماثلها من الفتيات ، وتبقى الفتاة محبة لأبيها ، أو لمن يماثله من الفتيان ؛ وهذا مظهر من مظاهر الشذوذ الجنسى ، وهو ما يراد من العقدة . ذلك لأن سلسلة الفكر عن الحب وموطن وضعه فيه لم يجر على ما هو عليه بصورة طبيعية ، وإنما انحرف عما خلق له ، لعامل فى نفس الطفل ، أو لشذوذ فى تربيته ، وسلك طريقاً آخر غير سوى ، قد يكون مصدر كثير من آلامه طول حياته

كذلك يمر بالطفل دور يحب فيه معرفة ما يحيط بموضوع الولادة ، فيبدأ بالسؤال عنه فتمسكته أمه بما يشبع الموضوع ، فيلتهب فيه حب الاستطلاع بطريقة غير حميدة ، ويجد فى الموضوع لذة على الرغم من إفهامه أنه قبيح ، وتكون النتيجة اعتقاد الطفل بأن الشىء اللذيذ هو الشىء القبيح . وهنا تنشأ العقدة . ويترتب على ذلك أحد أمرين ، فإما أن يكره الطفل أن تقترب منه أمه ، أو تتولد فيه الرغبة فى المخالطة المادية ، فيتبع إحدى الطريقتين ، إما الخجل أو اللذة الجسدية ؛ فإذا انكفأ الطفل على ملذاته ورأى منه والده ما يريب وانتهره ولجأ معه إلى الشدة ، انقلب خوف الولد من أبيه إلى الكره له ، والاعتقاد بأنه لو لم يكن أقوى منه لما خذله ، وتكون العقدة فى نفس هذا الطفل ، هى شعوره بالضعف . ولما كان الصغير لا يجد أمامه مجالاً للافصاح عما وقع له فهو يحاول إخفاءه عن

الجميع ، ويوجد في محاولته هذه ، الصفات المضادة للصفات التي يحاول إخفاءها ، كطرق دفاعية نفسية ضد ما يشعر به من ضعف يوشك أن يظهر للناس

قال فرويد : إن للعقل الباطن طريقتين متناقضتين للتعبير عما فيه ؛ فقد يكون رجلاً فاضلاً شريفاً ذلك الذي يطيل الحديث من الشرف والفضيلة ، وقد يكون سافل النفس دنيئاً فأراد أن يخفي بهذا الحديث ما يعرفه في نفسه مخافة أن يعرفه الناس . وعلة هذا ، أن العقل الباطن يجب أن يعبر عن النشاط الكامن فيه فإذا كان أحد الطريقين مقفلاً اختار الطريق المقابل

إن الطفل يحمل كثيراً من الغرائز التي يجب أن تعبر عن ذاتيتها وحيويتها في أعماله ؛ فإذا نحن منعناه عن الإفصاح عن إحدى غرائزه ، اختار للتعبير عنها طريقاً آخر شاذاً ، تنشأ فيه العقدة في نفسه ، وقد يُضغط على رغبة التعبير عن إحدى الغرائز فتتسرب تلك الرغبة إلى قاع النفس وهي ممنوعة عن الظهور ، إلا أنها لا تسكن في موطنها الجديد ، وإنما تبقى فاعلة متفاعلة في حدود العقل الباطن ، حتى إذا سنحت فرصة الظهور خرجت من العقل الباطن إلى العقل الواعي ونفست عن نفسها في هذا الخروج

لنفرض أن طفلاً مدللاً أرسله أبواه إلى المدرسة فلم يجد فيها ما ألفه في بيته من الحنان ، فمثل هذا الطفل إما أن يغير سلوكه الذي اعتاده قبل دخوله المدرسة ، أو يبقى مستمراً عليه ، فإذا هو لم يختر ما وقع له وظل يريد من الحياة أن تكون مثلما رآه في بيته ، مملوءة بالحنو والرقة ، ففي هذه البداية ينتهي الوليد إلى اعتبار كل زميل له في الدراسة فظاً غليظ القلب فينفر من الاقتراب منه ، ويشعر بالبغض له ، ومن ثم يحدث له نفور من كل غريب حتى تكاد تعذبه كل تعارف جديد . وقد تغيب هذه الرغبة الشاذة في طيات عقله الباطن ، وتزيدها تطاول العهد إمعاناً في التواري ، إلا أنها تبقى حية عاملة وهي تكون جزءاً من عقل الطفل . فالرغبة التي تربط الموضوع في هذا المثال ، هي العقدة

إن أكثر من نعرف يحمل في طيات نفسه من العقد النفسية ما يخرج حياة عقله عن السواء ويحيل بها إلى جانب من الشذوذ يكتنف شعور صاحبه وإدراكه وعلى إرادته على ما يأتيه من قول وعمل . وقد ثبت في دائرة العلوم النفسية أن أخطر سنوات الطفولة ما يقع بين الثالثة والثامنة من العمر ، ففي غضون هذه السنوات يقع أكثر ما يدعى بمشاكل الطفولة

على أن العقدة في ذاتها لا تعد خطراً على صاحبها إلا إذا كانت متوارية عنه ، وهي تعمل من وراء حجاب من الزمن . فإذا حلت العقدة زال ما بصاحبها من مرض يصيب العقل في الصميم

غير أن تحليل العقدة إلى العنصر الذي نشأت عنه ، وبعبارة أخرى أن تذكر الحادثة الخاصة التي تنطوي عليها العقدة ليس مما لا يشق على من يعانيه ؛ ذلك لأنه إذا فعل وجد نفسه أمام مانع عنيد هو الزمن ، فالعقدة لا تكتفي بالاختفاء وراء ثوبها المستعار وإنما تتوارى فيما وراء وقائع الزمن . وفي أحضان هذا الواقع تقع الصعوبة في تحليل العقدة . ولكن مهما يكن الأمر صعباً فإن طريق الخلوص إليه واضح لمن يريد

لنطلق العنان لما لنا من خواطر وأفكار ومنازع يعج بها العقل الباطن حتى نخرج بها إلى الذاكرة ، ومن ثم إلى عقلنا الواعي فنحللها فيه ونرجعها إلى مصادرها الحقيقية ، فإننا إن فعلنا ذلك استطعنا حل كافة العقد النفسية ، ومن ثم يسهل علينا التحرر منها بالإرادة وطول الممارسة

تلك هي طريقة التحليل النفسي ، بها نخرج بالعقدة إلى العقل الواعي ونربطها بالحادثة التي نشأت عنها فيظهر لنا بطلانها ، وبالتالي نتحرر منها وتصبح وكأن لم تكن بالأمس شيئاً

(بغداد) محيي الظريفي

المحامي

حكمت محكمة دمنهور العسكرية بجلسة ١٥ أكتوبر سنة ١٩٤١ في القضية رقم ٤٣٦ سنة ١٩٤١ ضد محمد عبد السيد إدريس بكوم صوان مركز أبي حمص بالحبس شهرين بالشغل والنشر على مصاريفه لبيعه ذرة بسعر أزيد من المحدد بالتسعيرة